أشـــــكال التـــطور الـــــــدلالي

الأستاذ عبد السلام غجاتي
أستاذ مكلف بالدروس
قسم اللغة العربية و آدابها، كلية الآداب و اللغات
جامعة منتوري ، قسنطينة ، الجزائر

ملخص

إذا كانت اللغة ظاهرة اجتماعية تصحب الإنسان في مظاهر حياته المختلفة فإن ألفاظها عرضة للتطور و التغير من حيث دلالاتها . ذلك أن الكلمة الواحدة تعطي من الدلالات بقدر ما يتاح لها من الاستعمالات . و يهدف هذا المقال إلى تتبع كلمات اللغة و ما تتعـــرض له من جـــهة المعـــنى ذلـــك أن التطـــور الـــدلالي يكون أوضح ما يكون في المستوى الدلالي لأنه الجانب الذي يربط بين اللغة و الواقع ربطا مباشرا . و في هذا السياق تأتي هذه الدراسة لتحليل أشكال التطور الدلالي ضمن " علم المعنى " الذي أضحى فرعا مستقلا من فروع الدراسات اللغوية الحديثة .

Résumé

Si la langue est un phénomène social qui accompagne l'homme durant les divers aspects de sa vie , ses mots subissent des mutations linguiste énorme .

Cet article vise a poursuivre les changements des mots au niveau sémantique de la langue afin de les traiter à travers les études linguistiques moderne .

إذا كانت اللـــغة ظـــاهرة اجتماعية تصحب الإنسان في مظاهر حياته المخـــتلفة و المتنوعة ، فإن ألفاظ هذه اللغة عُرضة للتطور و التغير من حيث دلالاتها . ذلك أن الكلمة الواحـــدة تـــعطي من المعاني و الدلالات بقـــدر ما يتاح لها من الاستعمالات

بقدر ما اهتم العلماء بما عرفته اللغة من غنى و اتساع في وسائل تعـــبيرها اهتموا كذلك بألفاظها من ناحية محافظتها على معانيها الأصلية و تتبع دلالاتها المكتسبة ، و أشاروا بالتالي إلى العوامل المؤدية إلى تغير معانيها و ما يصحب ذلك من مظاهر . يقول محمد المبارك : " إن ما يعتري الكائنات من تبدل و تحول قد يعتري كذلك الألفاظ فتتغير من ناحية شكلها و مبناها ... فقد تنتقل الكلمة من معنى إلى آخر أو تضيف إلى معناها معنى آخر جديدا دون أن تترك الأول ، فتتعدد بذلك المعاني التي تدل عليها و تستعمل في أي واحد منها على حسب الأحوال و المقامات ." [1]

و من بين اهتمامات علماء العربية القدامى بهذا الموضوع ، ما أورده ابن فـــارس (ت 395 هـــ) – مثلا – نقلا عن الأصمعي بأن " أصلَ الوِرْد إتْيان الماء ، ثم صار إتيانُ كلّ شيء وِرْدًا ." [2]

و قد تعرض جلال الدين السيوطي (ت 911هـــ) بدوره إلى بعض المظاهر التي تصحب التطور من تخصيص و تعميم ." [3]

و تفـــيـــد هـــذه الأقوال و الإشارات المتفرقة بأن اللغويين العرب القدامى قد الـــتـــفـــتـــوا إلى مســـألـــة التـــــطور الدلالي و لم يصرحوا بلفظة (التطور) ، و لكن سياق كلامهم و الأمثلة التي أوردوها تشير كلها إلى هذا المفهوم .

أما اللـــغـــويـــون المحدثون ، فقد تناولوا ظاهرة التطور – هذه – بالدرس و التحـــليـــل ، فـــعـــرضـــوا للعوامل المؤدية إليه ، و أجملوها في : الاستعمال و الحاجة [4] ، و استخلصوا ما يصحب ذلك من مظاهر ، و التي تتمثل

في تطور الدلالة بالتخصيص و التعميم ، و الانحطاط و الرقي ، و كذا تغير مجال الاستعمال .[5]

أشكال التطور الدلالي :

يستعمل الأفراد و الجماعات اللغة وسيلة للتواصل ، و أداة للتعبير عن مظاهر الحياة المختلفة . و إذا كانت الحياة في تغير و تطور دائمين ، فإن أثر ذلك التغير و التطور سرعان ما يعتري اللغة السائدة .

و يوجد في تطور اللغة فرق بين الصوتيات و الصرف و المفردات . فالنظام الصوتي يستقر منذ الطفولة و يستمر طول الحياة ؛ فالإنسان يحتفظ حتى آخر حياته بمجموعة الحركات التي تعودت عليها أعضاؤه الصوتية منذ طفولته اللهم إلا أن يحدث له عارض ناتج عن التعليم ، و ذلك في حالة أن يتلقن نطقا أجنبيا يحلّ محل النطق القومي . النظام الصرفي ثابت أيضا ؛ نعم إن استقراره يتطلب وقتا أطول ، و لكنه بعد أن يستقر لا يعتريه تغير يذكر . ذلك بأن الصرف لا يتغير في أثناء جيل واحد ، بل هو كالصوتيات إنما يتغير في الانتقال من جيل إلى جيل . فالنظام الصوتي و النظام النحوي إذا ما اكتُسِبَا مرّة بقيا طول العمر ، و يدينان باستقرارهما إلى استقرار ذهنية المتكلم .

أما المفردات فعلى العكس من ذلك لا تستقر على حال ، لأنها تتبع الظروف . فكل متكلم يكوّن مفرداته من أول حياته إلى آخرها بمداومته على الاستعارة ممن يحيطون به . فالإنسان يزيد من مفرداته و لكنه يُنقص منها أيضا و يغير الكلمات في حركة دائمة من الدخول و الخروج .[6]

و تغير المعنى ليس إلا جانبا من جوانب التطور الدلالي ، و لا يمكن فهمه فهما تاما إلا إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية الواسعة ، فاللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال ، على الرغم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحايين .[7]

وكل التغيرات التي تصيب اللغة – مهما اختلفت في طبيعتها أو سرعتها و مجالها – تسير وفقا لقاعدة أساسية واحدة ، هي أنها دائما و أبدا تقع على مرحلتين : المرحلة الأولى مرحلة التغير نفسه أو الابتداع و التجديد (Innovation) ، و يظهر هذا الابتداع في الكلام

الفعلي (Speech) ، و هو لذلك عمل فردي كالكلام نفسه ، و لكن هذا لا يعني أنه مقصور على فرد واحد ، بل يرفده قبول أفراد المجتمع ، و تأييدهم لاستـــعمـــالـــه ، مما يشكل عاملين أساسيين في المرحلة الثانية و هي مرحلة انتشار التغير .

فإذا ما سُمِعَ الشيء المُبتدع في عبارة ، أو في عبارات – كما هو الأغلب الأعم – علِق بالذهن ، و ترتب على ذلك استعمال الآخرين له ، و نفذ بالتدريج إلى نظام اللغة . و في حالة الكلمات و معانيها الجديدة يأتي الاعتراف متأخرا بعض الوقت ، و يكون ذلك بطريق تسجيلها بالمعجم .

و هكـــذا نـــرى أن المرحـــلـــة الأولى فردية (Individual) و الثانية اجتماعية (Social) معتمدة في أساسها على قوة التقليد .[8]

، إن التطور اللغوي يكون أوضح ما يكون في المستوى الدلالي ، لأنه الجانب الذي يربط بين اللغة و الواقع ربطا مباشرا ، و يصوغ العلاقة الرمزية بينهما صياغة تجريدية على هذا النحو :

الـــــــــدال (اللفظ)/ الـــمـــدلـــــول (الشيء) .

و لما كانت المـــدلـــولات (الأشـــياء) متطورة و كان من طبيعتها التغير و الـــتحـــول من زمـــن إلى زمن ، و من حضارة إلى حضارة ، كانت الدوال (الألفاظ) مـــتـــطورة باطراد متناسب مع ما يلابس المدلولات من تحولات و تغيرات ؛ يقول J. Lyons : " إن الثروة اللفظية للغة عبارة عن نسق متكامل من المواد المعجمية التـــي ترتبط بالمعاني ، هذا النسق في تدفق ثابت . فنحن لا نجد المواد المعجمية التي كانت موجودة من قبل تختفي ثم تحل محلها مواد جديدة عبر تاريخ اللغة فحسب ، بل إن علاقات المعنى التي تقع بين مادة معجمية بعينها و غيرها من المواد المجاورة في النسق في تغير مستمر عبر الزمن أيضا ، و أيّ اتساع في معنى إحدى المواد المـــعـــجـــمـــيـــة يتـــضـــمـــن تـــضـــيـــيـــقـــا مماثلا في مادة أو أكثر من المواد المجاورة لها ".[9]

بناء على ما تم استعراضه ، يتضح أن التغير الدلالي للمفردات يُعدّ من الحقائق المـــقررة لـــدى عـــلماء اللـــغة المحدثين ، و تتعدد المصطلحات الدالة

على طرق التغير الدلالي بينهم ، فمنهم من يطلق عليه مصطلح أشكال التغير الدلالي ، و بعضهم يطلق عليه مظاهر التغير الدلالي ، و بعضهم يسميه قوانين التغير الدلالي ، و يشير هؤلاء العلماء إلى أشكال متعددة للتغير الدلالي ، هذه الأشكال جديرة بأن ترصد حركة الدلالة في دورانها ، مع ألفاظ اللغة بمرور الزمن .[10]

و في أثناء تناولهم لكيفيات تغير المعنى، رأى علماء اللغة أن الأشكال المتعددة للتغير الدلالي ناتجة عن تقديم خطتين :

1 – الخطة المنطقية : لصاحبها بريال (Bréal) و غيره من متأخري علماء القرن التاسع عشر ... بعد أن أكدوا وجود علم المعنى بوصفه فرعا مستقلا من الدراسات اللغوية ، اتجهوا نحو تحليل أنواع التغيير في المعنى تحليلا منطقيا . و لقد وجد هؤلاء العلماء أن في دائرة المعاني القديمة و الجديدة نفسها ما يمدهم بخطة يسيرة قريبة المنال إلى أقصى حد ، حيث لم يتطلب الأمر منهم إلا النظر في ثلاث إمكانيات فحسب . و لقد تبين لهم أن المعنى القديم إما أن يكون أوسع من المعنى الجديد أو أضيق منه أو مساويا له ، و لم تكن هناك إمكانية رابعة يدخلونها في حسبانهم ؛ و من هنا جاء التقسيم الثلاثي الذي بنيت عليه الخطة المنطقية .[11]

و انطلاقا من هذا التقسيم ، تظهر ثلاثة أشكال من أشكال التغير الدلالي و هي :

أ – توسيع المعنى . ب – تضييق المعنى .ج – انتقال المعنى .

و إذا كانت هذه الخطة تتميز بالتقسيم المنطقي الذي لا يحتمل إمكانية رابعة ، و بالبساطة و السهولة في التطبيق ، فإنه يؤخذ عليها أنها شكلية و سطحية ، و لا تستطيع أن تمدنا بالمعلومات الكامنة خلف عمليات التغير الدلالي .[12]

2 – الخطة النفسية : و تعتمد على ما قدمه ستيفن أولمان (S.Ullmann) من أن المعنى هو العلاقة بين اللفظ و المدلول ، و من هنا تنشأ علاقة بين الألفاظ فقط أو بين المدلولات فقط ، أو بين الألفاظ و المدلولات معا في آن واحد .[13]

و إذا كانت هذه الخطة تقوم على طبيعة العلاقات ، فإن علماء النفس يذكرون نموذجين أساسيين من العلاقات :

الأول : أساسه وجود نوع من المشابهة بين الجهتين ، أي المدلولين أو اللفظين .

الثاني : حين ترتبط الجهتان بعضهما ببعض ارتباطا من نوع ما .[14]

و هذان النموذجان يراد بهما المجاز سواء كان استعارة (métaphore) أو مجازا مرسلا ، بعلاقاته المتعددة كالسببية و المحلية و الجزئية ... إلخ .

و يمكن أن نستخلص من هاتين الخطتين (المنطقية و النفسية) أشكال التغير الدلالي الآتية :

1 – تخصيص الدلالة أو تضييق المعنى .

2 – تعميم الدلالة أو توسيع المعنى .

3 – انتقال الدلالة .

4 – رقي الدلالة .

5 – انحطاط الدلالة .

و هي الأشكال التي سنخصها بالشرح و التحليل و التمثيل كما يلي :

1 – تخصيص الدلالة أو تضييق المعنى : Narrowing of meaning , restriction du sens .[15]

و هو عـــبـــارة عن " قـــصر اللفظ العام على بعض أفراده و تضييق شموله "[16] ، و ذلك بتخصيص مجال الدلالة من المعنى الكلي أو العام إلى المعنى الجزئي أو الخاص . و هو ما عب عنه إبراهيم أنيس بقوله : " فإذا تحددت الدلالة أو ضاق مجالها قيل إن اللفظ أصبح جزئيا ، و قيل إن الدلالة قد تخصصت . "[17]

و قد أشـــار علي عبد الواحد وافي – و هو بصدد الحديث عن أثر القرآن و الحديث و الإسلام في اللغة العربية – إلى ما اكتسبته مفردات العربية من معان جديدة ، و ما عرفته – بفعل العوامل السالفة – من تضييق و تحديد أدَّيا إلى تخصـــيص دلالات كثـــير منها في دائرة المفاهيم الإسلامية الجديدة ، حيث قال : " و أما المفردات و دلالتها فكان الأثر فيها واضحا كل الوضوح . فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها العامة القديمة ، و أصبحت تدل على معان خاصة

تتصل بالعبادات و الشعائر ، أو شؤون السياسة و الإدارة و الحرب ، أو مصطلحات العلوم و الفنون ." [18]

إن تخصيص الدلالة أو تضييق مجال استعمالها كثير الشيوع في اللغات ، فهذا ستيفان أولمان يورد مثالا في هذا السياق بقوله : " من المعروف أن الكلمة الإنجليزية poison و معناها " السم " (و يقابلها poison في الفرنسية) ، هي نفس الكلمة (potion) " الجرعة من أي سائل " ، و لكن الذي حدث هو أن الجرعات السامة دون غيرها هي التي استرعت الانتباه و استأثرت به ، لسبب أو لآخر . و بهذا تحدد المدلول ، و أصبح مقصورا على أشياء تقل في عددها عما كانت عليه الكلمة في الأصل إلى حد ملحوظ ." [19]

و قد ساق إبراهيم أنيس شواهد من لهجات الخطاب عندنا تدعم مظهر التضـــييق هذا ، فهـــذه كلمة " الطهارة " تخصصت و أصبحت تعني " الختان " ، و تخصصت كلمة " الحريم " فبعد أن كانت تطلق على كل محرم لا يمس ، أصبحت الآن تطلق على " النساء " ، و كذلك كلمة " العيش " حيث تطلق الآن في مصر على " الخبز " . [20]

و تشيع ظاهرة تخصيص الدلالة أكثر في مجال المصطلحات العلمية ، حيث تنقل الألفاظ من معانيها اللغوية العامة ، لتصبح دلالتها اصطلاحية ، " حتى إن الكلمة الواحدة يصبح لها أكثر من معنى اصطلاحي ، مثل : (المضارع) ، يقصد به في النحو : الفعل الدال على حدوث شيء في زمن التكلم أو بعده ، و يراد به في العروض : بحر من بحور الشعر . كذلك كلمة (جذر) لها معنى اصطلاحي في علم اللـــغة يختلف عنه في الرياضيات ، أيضا ما حدث لكثير من الألفاظ الدينية مثل : الصلاة ، الزكاة ، الحج ، الصوم ... إلخ ، حيث تحولت دلالتها من المعنى اللغوي العام إلى المعنى الاصطلاحي الخاص ." [21]

و قد انتبه اللغويون العرب القدامى لهذه الظاهرة ، فهذا أحمد بن فارس يخصص بابا في كتابه " الصاحبي " سماه " باب الأسباب الإسلامية " ، استعرض فيه ما حدث لكثير من الألفاظ العربية بعد مجيء الإسلام ، حيث انتزعها من معناها اللغوي العام ، و ضيق مجالها ليصبح مخصصا لما جاءت به تعاليمه . و مما

أورده في هذا الســياق قــوله : " فكان مما جاء في الإسلام ذكر المؤمن و المسلم و الكافر و المنافق ، و أن العرب إنما عرفت المؤمن من الأمان و الإيمان و هو التصديق ، ثم زادت الشريعة شرائط و أوصافا بها سُمِّي المؤمن بالإطلاق مؤمنا . و كذلك الإسلام و المسلم ، و إنما عَرَفت منه إسلام الشيء . ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . و كذلك كانت لا تعرف من الكفر إلا الغطاء و الستر . فأما المنافق فاسم جاء الإسلام لقوم أبطنوا غير ما أظهروه ، و كان الأصل من نافقاء اليربوع. و لم يعرفوا في الفسْق إلا قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها ، وجاء الشرعُ بأن الفِسقَ الإفحاشُ في الخروج عن طاعة الله – عز و جل – و مما جاء في الشرع الصلاة ، و أصله في لغتهم الدعاء " .[22]

و هــذه كلــمــة " الخليفة " التي تعني في العصر الإسلامي و الأموي و العباسي : الحاكم الأعلى للمــسلمــين ديــنــيا و دنيــويا ، و قد كانت تعني قبل ذلك كل من يخلف غيره لموته أو لغيبته ، و بذا تحول المدلول العام إلى مدلول خاص .[23]

2- تعميم الدلالة أو توسيع المعنى : Widening of meaning , Extention du sens[24] و هو عبارة عن " توسيع معنى اللفظ و مفهومه و نقله من المعنى الخاص الدال عليه إلى معنى أعم و أشمل ".[25]

و يشير إبراهيم أنيس – و هو بصدد الحديث عن هذا المظهر- إلى أن " تعميم الدلالات أقل شــيوعا في اللــغات من تخصيصها ، و أقل أثرا في تطور الدلالات و تغيرها. "[26]

و يشبه تعميم الدلالات ما نلحظه لدى الأطفال حين يطلقون اسم الشيء على كل ما يشبهه لأدنى ملابسة أو مماثلة و ذلك لقصور محصولهم اللغوي ، و قلة تجاربهم مع الألفاظ . فقد يطلق الطفل لفظ " الأب " على كل رجل يشبه أباه في زيه أو قامته أو لحيته أ و شاربه ، و قد يطلق لفظ " الأم " على كل امرأة تشبه أمه في ثيابها و شعرها ... .[27]

و من هذا التعميم أن " البأس " في أصل معناها كانت خاصة بالحرب ، ثم أصبحت تطلق على كل شِدّة ، و أيضا " أمير المؤمنين " التي أطلقت أول ما

أطلقت على الخليفة عمر بن الخطاب ثم أصبحت تطلق بعد ذلك على كل خليفة يحكم المسلمين .[28]

و في هذا الإطار يذكر فندريس أن التعميم ينحصر " في إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الجنس كله . و هذه هي حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذي يروي البلدة التي يعيشون فيها : هكذا يفعل الطفل الباريسي عندما يصيح و قد رأى نهرا je vois une Seine ، "أرى سينا".[29]

و من الأمثلة الدالة على توسيع المعنى ما أورده ستيفن أولمان *STEPHEN ULLMANN* ، من أن الكلمة الإنجليزية "*ARRIVE*" و يقابلها في الفرنسية "*ARRIVER*" ، تنحدر عن اللاتينية *ADRIPARE* بمعنى "يصل إلى الشاطئ" و هذه الأخيرة ترجع بدورها إلى *RIPA* أي "شاطئ " ، فهذه الكلمة كانت في الأصل مصطلحا بحريا لا يجوز استعماله إلا في معنى الوصول إلى الميناء . أما الآن فقد اتسع نطاق استعمالها حتى أصبحت تشمل عددا ضخما من أنواع الوصول ، سواء أكان ذلك على القدم أم بأية وسيلة أخرى من وسائل الانتقال و هكذا نرى أن معنى الكلمة لحقه تعميم كبير . "[30]

و قد أورد أحمد بن فارس نماذج لكلمات لاحظ أن التعميم قد لحقها فقال مثلا : " كان الأصمعي يقول: أصل الوِرْد إتيان الماء ، ثم صار إتيان كل شيء وِرْدًا ... و يقولون : رفع عقيرته أي صوته : و أصل ذلك أن رجلا عقرت رجله فرفعها و جعل يصيح بأعلى صوته ، فقيل بعد ذلك لكل من رفع صوته : رفع عقيرته ".[31]

و قد عالج جلال الدين السيوطي في فصل سماه "في ما وضع في الأصل خاصا ثم استعمل عاما . "[32] حيث أورد أمثلة كثيرة في هذا المجال منها مثلا : النجعة أصلها طلب الغيث ، ثم صار كل طلب انتجاعا ، و المنيحة أصلها أن يعطى الرجل الناقة ، فيشرب لبنها أو الشاة ، ثم صارت كل عطية منيحة ، و الوغى : اختلاط الأصوات في الحرب ، ثم كثر فصارت الحرب وغى ، و قولهم : ساق لها مهرها في الدراهم ، و كان الأصل أن يتزوجوا على الإبل و الغنم فيسوقونها ، فكثر ذلك حتى استُعمل في الدراهم . و يقولون : بنى

الرجل بامـــرأته إذا دخـــل بها ، و أصل ذلك أن الرجـــل كان إذا تزوج يُبْنَى له و لأهله خباء جديد ، فكثُر ذلك حتى استُعمل في هذا الباب . [33]

و من باب التعميم أيضا " تحويل الأعلام إلى صفات ، فالعلم " قيصر " قد يطلق و يراد منه العظيم الطاغية ، و " نيرون " الظالم أو المجنون ، و " حاتم " الكريم المضياف ، و " عرقوب" للمخادع القليل الوفاء . " [34]

و يميل الناس عموما إلى مظهر توسيع الدلالة ، حيث " يكتفون بأقل قدر ممكن من دقة الدلالات و تحديدها ، و يقنعون في فهم الدلالات بالقدر التقريبي الذي يحقق هدفهم من الكلام و التخاطب ، و لا يكادون يحرصون على الدلالة الدقيقة المحددة ، التي تشبه المصـــطلـــح العلـــمي . و هم لذلك قد ينتقلون بالدلالة الخاصة إلى الدلالة العامة إيثارا للتيسير على أنفسهم ، و التماسا لأيسر السبل في خطابهم . " [35]

3- انتقال الدلالة : Transferred meaning , Transfert du sens [36]

و يعني انتقال اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى مشابه أو قريب منه أو بينه و بينه مناسبة . [37]

و بالإضافة إلى توفر علاقة المشابهة أو المجاورة أو غيرها لانتقال دلالة اللفظ ، يشير محمد المبارك إلى أن هذا الانتقال يحصل بطرق أبرزها " الاستعارة أي المجاز الذي علاقته التشبيه ، و المجاز المرسل و هو الذي تكون علاقته غير التشبيه كالسببية و الحالية و المحلية و الجزئية و الكلية . " [38]

و بحصول هذا الانتقال ، تصبح الكلمة حقيقة في المعنى الجديد بعد أن كانت مجازا فيه ، و قد ينسى المعنى القديم أو ينقرض .

و لإيضاح مسألة انتقال الدلالة هذه ، و الفرق بينها و بين الاتجاهين السابقين ، تخصيص الدلالة ، و تعميم الدلالة ، يقول فندريس : " و هناك انتقال عندما يتـــعادل المعنيان أو إذا كانا لا يختلفان من جهة العموم و الخصوص (كما في حالة انتقال الكلمة من المحلّ إلى الحالّ ، أو من السبب إلى المسبب ، أو من العلامة الدالة إلى الشيء المدلول عليه ... إلخ ، أو العكس) . و لسنا في حاجة إلى القـــول بأن الاتساع و التضييق ينشآن من الانتقال في أغلب الأحيان ،

و أن انتـــقال المـــعنى يتضـــمن طرائق شتى ، يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية (Métaphore " الاستعارة " synecdoque " إطلاق البعض على الكل " أو métonymie " المجاز المرسل بوجه عام " أو catachrése " المجاز المرسل بعلاقة التشبه أو غيره عند عدم وجود اسم للشيء المنقول إليه " إلخ)". [39]

إن انتقال الدلالة إلى معنى جديد، و رواجه بين المستعملين ، سرعان ما يحيل المجاز إلى حقيقة " و قد أثبت اللغويون ملاحظاتهم بأن تغير الدلالات يكون في الانتقال من الدلالات الحسية إلى الدلالات المعنوية (المجازية) ، و المسافة بين المعنى الحقيقي (الحسي) و المعنى المجازي (المعنوي) تمثل رحلة تغير الكلمة من الحقيقة إلى المجاز". [40]

فالتغير الدلالي هنا يعتمد أساسا على وجود علاقة مجازية ، قد تكون علاقة مشابهة ، عن طريق الاستعارة Métaphore , Metaphor [41] ، أي أن المشابهة هي التي تؤدي إلى استخدام الكلمة في غير معناها الأصلي ، و قد تكون علاقة غير المشابهة ، و تأتي عن طريق المجاز المرسل métonymie ,Metonymy [42] ، بعلاقاته المختلفة . و يطلق على المعنى الجديد : المعنى المجازي transferred meaning أي المحوّل بواسطة المجاز .

و نأتي إلى تقديم بعض الأمثلة من واقع اللغة ، تدعم هذا النوع من الانتقال الدلالي ، فمن أمثلة انتقال الدلالة لوجود علاقة المشابهة بين المدلولين، أي بسبب الاستعارة، ما أورده ستيفن أولمان ULLMANN مثلا حين قال : " إننا حين نتحدث عن عين الإبرة نكون قد استعملنا اللفظ الدال على عين الإنسان استعمالا مجازيـــا ، أما الذي ســـوّغ لنـــا ذلك فهو شدة التشابه بين هذا العضو و الثقب الذي ينفذ الخيط من خلاله . " [43]

و بعد أن أشار إلى أنه يمكن التمثيل أيضا بتلك العادة المألوفة لنا اليوم من إطلاق أسماء أعضاء الإنسان على الجمادات ، حيث إن جسم الإنسان يعد قطاعا من القطاعات البارزة التي تنتقل الكلمات منها و إليها ، أضاف أن هناك نوعا آخر من الاستعارة ، يعتمد على التشابه في الشعور ، فقال : " و هناك نوع آخر من

الاستعارات يعتمد على التشابه في الشعور نحو جانبي الاستعارة ، و في نوع الإحساس بهما أكثر من اعتماده على التشابه في الخصائص الجوهرية ".[44]

و من أمثلة ذلك قولنا : " تحية عطرة ، كلام بارد ، حوار ساخن ...إلخ . فهنا يوجد الإحساس بأن هناك تشابها بين التحية الطيبة و بين العطر ، و بين الكلام الـــهادئ غير المؤثر و البرد ،و بين الحوار المملوء بالانفعال و الحيوية و بين السخونة .[45]

و من أمثلة انتقال الدلالة لعلاقة المشابهة أيضا لفظة : بيت ، بمعنى المسكن (و أصله بيت الشَّعْر) ، ثم أطلق على بيت الشِّعْر و ذلك " على الاستعارة بضم الأجزاء (أجزاء التفعيل) بعضها إلى بعض على نوع خاص كما تضم أجزاء البيت في عمارته على نوع خاص".[46]

و من أمثلة انتقال الدلالة لعلاقة غير المشابهة أي المجاز المرسل métonymie ما أورده ستيفن أولمان بقوله :" الكلمة bureau " مكتب" قد يكون معناها اليوم المكتب الذي يجلس إليه الإنسان و يكتب عليه ، أو المصلحة الحكومية أو المكان الذي تدار منه الأعمال ، و من الواضح أنه ليست هناك أية مشابهة بين المدلولين ، و لكن بينهما ارتباطا من نوع آخر، فالمكتب الذي نكتب عليه يوضع عادة في الأماكن التي تدار منها الأعمال . و على هذا فالفكرتان مرتبطتان بعضهما ببعض في ذهن المتكلم ، أو قل : إنهما تنتميان إلى مجال عقلي واحد . و هذا هو التفسير النفسي لذلك النوع من المجاز المعروف بالمجاز المرسل metonymy ."[47]

و نظرا لتعدد علاقات المجاز المرسل ، فإننا نقابل في الواقع اللغوي صورا متعددة منه ، فهناك علاقة الجزئية أي إطلاق الجزء و إرادة الكل ، و ذلك مثل إطلاق العين على الجاسوس ، و الرقبة على العبد المملوك ، و الكلمة على الجملة في أثناء قولنا : ألقى الرجل كلمة في الحفل .

و هناك علاقة الكلية ، أي إطلاق اسم الكل على جزء منه ، مثل قوله تعالى : " يجعلون أصابعهم في آذانهم " (البقرة / 18) أي أطراف أصابعهم ، و كذلك مثل قولنا : قُطِع السارق و المراد يدُه .

و هناك علاقة الآلية : و هي أن يُسَمَّى الشيء باسم آلته مثل إطلاق اللسان على اللغة من قبيل إطلاق الأداة على الشيء كقوله تعالى : "و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه "(إبراهيم / 5) .

و هناك علاقة السببية كما في قولنا "رعينا الغيث" و المراد النبات لأنه عن الغيث يكون ، كذلك إطلاقهم كلمة "السماء" على المطر ، كقول الشاعر :

إذا نَزَلَ السماءُ بأرضِ قومٍ رعَيْنَاهُ و إن كانوا غِضَابَا

و منه لفظة : البيع و أصله مبادلة مال بمال ، ثم أطلق على عقد البيع مجازا ، لأنه سبب التمليك و التملك .[48]

و هناك علاقة الحالية أي تسمية الحالّ باسم المحلّ ، كقولهم لأهل المجلس : المجلس ، و لذلك نجدهم يقولون : اتفق المجلس على كذا ، و وافقت الكلية على كذا .

.و هناك علاقة المحلية و هي تسمية المّحل باسم الحالّ ، مثل قوله تعالى : "و أما الذين ابيَضَّت وجوهُهم ففي رحمة الله" (آل عمران/107) ، حيث سمّى الجنة هنا رحمة الله ، أو مثل إطلاق لفظ بيت على الزوج في قولهم : هل لك بيت ؟

إلى غير ذلك من أوجه العلاقات المتعددة .[49]

4- رقي الدلالة :

و يطلق عليه أيضا تسامي الدلالة ، حيث إن "شرف الكلمة و قيمتها بين الجماعة اللغوية مستمد من قيمة معناها ، فكلمة "لواء" مثلا لا تكمن قيمتها في اللام و الواو و الألف و الهمزة ، فما هذه الحروف إلا رموز معبرة عن معنى اصطلح الناس عليه ، و قيمة معناها تتجلى في قيمة السلطة المخولة لهذه الرتبة و في قيمة المسؤولية المنوطة بها " .[50]

و مع تطور الحياة في الميادين المختلفة ، يصيب بعض الألفاظ رقي دلالي أفضل من الذي كانت تستعمل به ، من ذلك لفظة " رسول " و التي كانت تعني الشخص الذي يرسله المرء في مهمة مهما كان شأنها،ثم ارتقت هذه الدلالة بعد الإسلام ليصبح لها هذه المكانة السامية المقدسة التي نالتها .

و كذلك كلمة "القرآن" و هي مصدر من الفعل قرأ بمعنى جمع الشيء بعضه إلى بعض ، في كلام العرب قبل الإسلام ، و بمجيء الإسلام أطلقت على كلام الله

تعالى "القرآن" ، و في هذا من سمو المعنى و رقيه ما لا يحتاج إلى بيان .كذلك كلمة " آية " استعملت في كلام العرب قبل الإسلام بمعنى : العلامة [51]، لكن دلالتها ارتقت درجة أفضل حين استعملها القرآن بمعنى الجملة من الكلام . [52]

و هذه كلمة " مارشال " maréchal " التي ترجع إلى أصل جرماني و كانت تعني " خادم الإسطبل " . [53] ثم صارت – بعد رقي دلالتها – تطلق على رتبة عسكرية مرموقة .

و كذلك كلمة " البدلة " في العامية ، و فصيحها بِذْلَة (بكسر الباء) و هي " ما يمتهن من الثياب في الخدمة ، و الفتح لغة ." [54] و هي الآن تطلق على أفضل الملابس و أحسنها مظهرا .

و هذه أيضا كلمة " العفش" كانت تطلق قديما على سقط المتاع ، و ما لا خير فيه من الأثاث ثم صارت تطلق- بمرور الزمن- على أثاث العروس الثمين . [55]

5- انحطاط الدلالة :

و هذا النوع من أنواع التغير الدلالي يشير إلى ما يصيب الكلمات التي كانت تـــحمل معان رفيعة راقية ، و أصبحت تدل على معان وضيعة و منحطة . " غير أن ضعف الدلالة و انحطاطها أكثر ذيوعا في اللغات بوجه عام ". [56]

فكلمة احتال كانـــت تعـــني طـــلب الحيلة . و (الحيلة) " الحذق في تدبير الأمور، و هو تقليب الفكر حتى يهتدي إلى المقصود " [57] ، و قد تحولت في عصرنا (احتال) و (احتيال) إلى معنى الغش و الخداع للوصول إلى تلبية المطالب الشخصية ، و هو سلوك غير سوي في بيئتنا .

و كلمة " أفندي " من الألقاب التي كانت تدل على مكانة مرموقة في نظر المجتمع المصري مثلا خلال القرن التاسع عشر ، و لكنها فقدت تلك المكانة خلال القرن العشرين .

و كلمة " الحاجب" كانت تعني منصب " رئيس الوزراء" إبان الحكم الأندلسي ، ليتزل معناها الآن إلى ما هو متعارف عليه أي العامل الواقف بباب أي إدارة أو مصلحة حكومية .

و كانت عبارة طول اليد قد وردت في الحديث الشريف بمعنى السخاء و الجود حين قالت للنبي نساؤه : " أينا أسرعُ لحاقا بك يا رسول الله ؟ " فقال صلى الله عليه و سلم : " أطوَلُكنّ يدا " و هذه العبارة الآن تستعمل في لهجات الخطاب بمعنى السرقة .[58]

كما تتجه دلالات بعض الألفاظ إلى الانحطاط نتيجة احتقار بعض الناس لها ، و ذلك لما تتضمنه من أفكار و تصورات – أصبحت غير مرغوب فيها – كألفاظ : الإقطاعي ، الرجعي ... إلخ .

وهكذا تفقد الكثير من الألفاظ مكانتها في المجتمع ، حيث قد تبدأ حياتها بمعان راقية و قوية ، لتتجه في أثناء الاستعمال إلى انحدار المعنى ، و قد أشار جوزيف فندريس إلى حياة الألفاظ ، و ما تتعرض له في هذا السياق بقوله : " الانحدار الذي يصيب الكلمات يعكس بطريقة ملموسة إما الاحتقار الذي تكنه الطبقات الاجتماعية بعضها لبعض و إما البغض المتبادل بين الأوطان و الأجناس و إما التعصب الأعمى من جانب الجماهير و إما عدم احترام المتعصبين لآراء غيرهم ... فالناس يتباغضون و يتناحرون و يتبادلون الاحتقار و يتنابزون بالألقاب ، و اللغة حارس أمين على آثار هذه الحماقات المستمرة ".[59]

و كثيرا ما يساهم الناس في إضعاف دلالات كثير من الألفاظ ، و ذلك بالمبالغة في استعمالها في مسائل هينة لا تقتضي استعمالها ، و لذلك تنحدر دلالتها من القوة إلى الضعف ، بحيث لا يصبح ذكرها يثير خوفا أو اهتماما . " و يشبه هذا ما نسمعه في بعض لهجات الخطاب حين تستعمل كلمة " القتل و القتال" ، في الشجار حتى مع ضعف شأنه و نتائجه . و كذلك كلمة " الكرسي"، استعملت في القرآن الكريم بمعنى " العرش " في قوله تعالى :" وسِعَ كرسيُّه السماوات و الأرض " (البقرة / 254) . غير أن هذه الكلمة أصبحت الآن تطلق على "كرسي" السفرة و " كرسي" المطبخ ".[60]

و من الأمثلة التي تذكر في هذا السياق أيضا، ثلاث كلمات إنجليزية في الوصف بالشناعة أو الفظاعة و هي: dreadful ، terrible، horrible ، حيث كانت إذا استعملت خلال القرن الثامن عشر أفزعت السامع ، و جعلته يشعر بما

يشبه هول القيامة ، و لم يكن الكُتّاب يتناولونها إلى حين يثور بركان ثورة عنيفة ، أو حين تزلزل الأرض زلزالا يُخرِّب المدن و يذهب ضحيته آلاف البشر ! ثم انهارت دلالة هـــذه الأوصـــاف و سمعـــناها على ألسنة الإنجليز يصفون بها الحدث التافه كسقوط فنجان من الشاي على السجادة ، أو اصطدام دراجة بالحائط و نحو هذا !؟ " .[61]

و هكذا، تواصل الكلمات مسيرتها عبر محطات الزمن ، و هي في خلال سيرها ذاك معرضة لضغط مزدوج ، حيث يحاول مستعملوها تركيز معانيها في أذهانهم ، في أثناء تلقيهم لها في المحيط العام ، إلا أن " الحياة تشجع على تغير المفردات لأنها تضـــاعف الأسباب التي تؤثر في الكلمات . فالعلاقات الاجتماعية و الصناعات و العدد المتنوعة تعمل على تغير المفردات و تقضي على الكلمات القديمة أو تحوّر معناها و تتطلب خلق كلمات جديدة ... ."[62]

إن هذه الدراســـة عبارة عن محاولة لمعرفة كيف تغير الكلمات دلالاتها ، و ذلك من خلال تسليط الضوء على حياة الألفاظ و معانيها و أشكال تطورها في اللغة الإنسانية بصورة عامة ، و اللغة العربية على وجه الخصوص .ذلك أن العربية واصلت مسيرتها في محيط غير ملائم عموما ، و هو ما كشفه التعرض – من خلال هذه الدراسة – لبعض خصائصها و المسالك التي قطعتها ألفاظها في مسار التقدم ، لتتمكن من الصمود و المقاومة في طريق الحياة و التطور المستمرين .

الهوامش :

1- فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية ، محمد المبارك . دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، لبنان . ط 7 ، 1401 هـــ 1981 م :ص107.

2- الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها ، ابن فارس . تحقيق : مصطفى الشويمي . مؤسسة أ- بدران للطباعة و النشر ، بيروت، لبنان ، 1383هـ - 1964م : ص95 ، 96.

3- المزهر في علوم اللغة و أنواعها ، جلال الدين السيوطي . تحقيق : محمد أحمد جاد المولى و آخرون . منشورات المكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، 1986م : 426/1 .

4- أنظر : دلالـــة الألـــفـــاظ ، د. إبراهيم أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط4 ، 1980: ص 134-151 .

- فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية ، محمد المبارك ص: 218-222 .

أنظر : دلالـــة الألـــفـــاظ : ص 152-165 .

- فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية : ص 218-222 .

5- اللغة ، جوزيف فندريس . تعريب عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص . (د . ط) ، (د ، ت) :ص 246 .

6- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان . ترجمة د . كمال بشر . دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، ط 12 ، 1997: ص 178 . و العنوان الأصلي هو : *Words and their use by STEPHEN ULLMANN :*

7- المرجع نفسه ص: 197 .

8- *John Lyons , Semantics, v.l.p.252*

نقلا عن : العربية و علم اللغة الحديث ، د . محمد محمد داود . دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ،2001 : ص208 .

10 – علم الدلالة ، دراسة نظرية و تطبيقية ، د . فريد عوض حيدر . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 2 ، 1419 هـ - 1999 م : ص 71 .

11 – دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان . ترجمة كمال بشر : ص 190 .

12 - المرجع نفسه : ص 191-192 ، و انظر أيضا : علم الدلالة ، دراسة نظرية و تطبيقية ، د. فريد عوض حيدر : ص 72 .

13 - دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان: ص 192-193 .

14 - المرجع نفسه : ص 193 .

15 - الـــمـــعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي – فرنسي – عربي) المنظـــمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، مكتب تنسيق التعريب . تونس ، 1989 : ص92 .

16 - فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية ، محمد المبارك ص: 219 .

17 دلالة الألفاظ : ص 152 .

18- فـــقـــه اللغة ، د. علي عبـــد الـــواحـــد وافي .دار نهـــضة مصر للطباعة و النشر ، القاهرة ، ط7، 1393هـــ - 1973م : ص 119 .

19 - دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان . ترجمة د. كمال بشر : ص 191.

20 - أنظر : دلالة الألفاظ : ص 154 .

21 - العربية و علم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود : ص 213 .

22 - الصاحبي لابن فارس : ص 79 ، 80 .

23 - انظر : دراسات في الدلالة و المعجم . د. رجب عبد الجواد إبراهيم . دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 2001 : ص 96 .

24 - الـــمـــعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات : ص 156 .

25 - فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية : ص 218 .

26 - دلالة الألفاظ : ص 154 .

27 - المرجع نفسه : ص 154-155 .

28 - دراسات في الدلالة و المعجم . د. رجب عبد الجواد إبراهيم : ص 96 .

29 - اللغة ، جوزيف فندريس . تعريب الدواخلي و القصاص : ص 258 .

30 - دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان ، ترجمة كمال بشر : ص190 .

31 – الصاحبي : ص 95 ، 96 .

32 – المزهـــر في علوم اللغة و أنواعها ، جلال الدين السيوطي . شرحه و ضبطه و صححه : محمد أحمد جاد المولى و آخرون . دار الجيل ، بيروت ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، (د . ت) : ج1 / ص 429 – 433 .

33 – انظر : المزهر : 1 / 429 ، 430 .

34 – دلالة الألفاظ : ص 155 .

35 – المرجع نفسه : ص 155 .

36 – الـــمـــعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات : ص 146 .

37 – انظر : فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية : ص 220 .

38 – المرجع نفسه : ص 220 ، 221 .

39 – اللغة ، جوزيف فندريس . تعريب الدواخلي و القصاص : ص 256 .

40 – العربية و علم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود : ص 214 .

41 – الـــمـــعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات : ص 87 .

42 – المرجع نفسه : ص 87 .

43 – دور الكلمة في اللغة : ص 193 .

44 – المرجع نفسه : ص 195 .

45 – انظر : العربية و علم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود : ص 215 .

46 – المصـــباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي . تحقيق عبد العظيم الشناوي . دار المعارف ، مصر ، 1977 : (بيت) ص 68 .

47 – دور الكلمة في اللغة : ص 198 .

48 – المصباح المنير للفيومي : (بيع) ص 69 .

49 – انظر مثلا : علم الدلالة ، دراسة نظرية و تطبيقية ، د . فريد عوض حيدر : 79 – 83 .

50 – العربية و علم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود : ص 217 .

51 – المصباح المنير للفيومي : ص 32 .

52 – انظر : العربية و علم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود : ص 218 .

53 – دور الكلمة في اللغة : ص 211 .

54 – المصباح المنير : ص 41 .

55 – انظر : في علم الدلالة ، محمد سعد محمد . مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة . ط1 ، 2002 : ص 106 . و انظر أيضا : دلالة الألفاظ : ص 158 .

56 – المرجع نفسه : ص 158 .

57 – المصباح المنير : ص 157 .

58 – انظر : دلالة الألفاظ : ص 157 .

59 – اللغة ، جوزيف فندريس . تعريب الدواخلي و القصاص : ص 266 .

60 – دلالة الألفاظ : ص 156 ، 157 .

61 – المرجع نفسه : ص 156 .

62 – اللغة ، جوزيف فندريس . تعريب الدواخلي و القصاص : ص 247 .

المراجع :

- القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع المدني . مجمع خادم الحرمين الشـــريفـــين الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ، المدينة المنورة ، 1412 هـــ .

1- دراسات في الدلالة و المعجم . د. رجب عبد الجواد إبراهيم . دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 2001 .

2- دلالـــة الألـــفـــاظ ، د. إبراهـــيم أنيس . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط4، 1980 .

3- دور الكلمة في اللغة ، ستيفن أولمان . ترجمة د. كمال بشر . دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، ط 12 ، 1997 .

4- الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها ، ابن فارس . تحقيق : مصطفى الشويمي . مؤسسة أ- بدران للطباعة و النشر ، بيروت، لبنان ، 1383هـــ - 1964م .

5- الـــعـــربـــية و علم اللغة الحديث ، د. محمد محمد داود . دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ،2001 .

6- علم الدلالة ، دراسة نظرية و تطبيقية ، د. فريد عوض حيدر . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1419هـــ - 1999م .

7- فـــقـــه اللغة ، د. علي عبد الواحد وافي .دار نهضة مصر للطباعة و النشر ، القاهرة ، ط7، 1393هـــ - 1973م .

8- فـــقـــه اللـــغة و خـــصائـــص العـــربية ، محمد المبارك . دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، لبنان . ط 7 ، 1401 هـــ 1981 م .

9- في علم الدلالة ، د. محمد سعد محمد . مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، ط1، 2002 .

10- اللغة ، جوزيف فندريس . تعريب عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص . (د . ط) ، (د ، ت) .

11- المصـــباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي . تحقيق عبد العظيم الشناوي ، دار المعارف ، مصر ، 1977 .

12- المزهـــر في علوم اللغة و أنواعها ، جلال الدين السيوطي . تحقيق : محمد أحمد جاد المولى و آخرون . منشورات الكتبة العصرية ، صيدا بيروت ، 1986 . و طـــبـــعة دار الجـــيـــل ، بـــيـــروت ، دار الفـــكـــر للطـــبـــاعـــة و النشر و التوزيع ، (د . ت) .

13 – الـــمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات (انجليزي – فرنسي – عربي) ، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم ، مكتب تنسيق التعريب . تونس ، 1989